شخصية البحتري

الاحتفال بشاعر الشام الأكبر ، وتابغة العروبة الخالد تكريمٌ لذكراه ، وتحيّة لفنّه ، والتكريم والتحيّة يقتضيان الاقتصار على ما يجمل ذكره من أخلاق الشاعر وصفاته . وذلك يتسنّى لمن يتحدّث مختاراً عن جانبٍ من سلوكه ، أو مزية من مزايا فنّه ، أما من اقترح عليه أن يتحدث عن شخصيته فالأمر معه جدّ مختلف . ذلك لأنّ شخصيّة الرجل هي صورته المعنوية تركّبت من آثار الفطرة والوراثة والبيئة والطبيعة ونمط العيش ونوع الثقافة ولون الحضارة ، ولأولئك كله خطوطٌ وألوان وظلالٌ ، منها المستقيم والمعوجّ والسويّ والشاذّ والبارزُ والمستتر ، وبدونها كلها لا تكمل الصورة ولا تتمّ المعرفة . فإذا صورتُ البحتريّ على الطريقة الواقعية التي تعتمد على اعترافاته وشهادة مواطنيه ، لا على الطريقة الخيالية التي صوّر بها هو ممدوحيه ، كنت أقرب إلى إرضاء الحقّ وإنصاف التاريخ . وعذر البحتريّ في انطباع شخصيته على هذه الصورة حال المجتمع في عصره ، فقد كان العصر الثاني من عصور الدولة العباسية عصر نزاع على الخلافة ، وصراع بين الأجناس ، وصدام بين المذاهب ، وخصام بين الأسر ، وتنافس في الثروة والجاه ، وتدفق في الترف واللهو ، وتورّط في الشهوة واللذة . والشاعر الذي يعيش على صلات الخلفاء والرؤساء مقضيّ عليه أن يساير ويشارك ويهاوي ويحتال ، ليخرج من الرأي إلى نقيضه ، وينقلب من الرجل إلى عدوّه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شخصية الوليد أبي عبادة البحتري شخصية الإنسان المطبوع ، والفنان الموهوب . كانت إنسانيته لا يختلف معناها عن معنى الحيوانية في اكتساب القوت لتحيا ، واجتناب الأذى لتنجو . وكانت فنيته لا يبعد مداها عن أن تكون وسيلة لهذه الحياة ، تهيئ لها عدة القوة ، وتمد لها أسباب العزة كما يقول :

لي من الشعر نجوة واعتزاز وهجوم على الأمور الشداد

كان الشعر في عصر البحتري للشاعر بمثابة الناب والظفر للسبع : يبتغي الرزق بالمدح ، ويتقي الأذى بالهجاء . والذي جعل للشعر هذه الوظيفة تلك الحساسية المرضية التي توارثها العرب لمدح استجابة لدواعي العصبية وطمعاً في خلود الذكر .

وكان البحتري وهو صبي يرتع بين أشجار التوت في « منبج » ، أو يتنقل وهو يافع بين مضارب « طيء » على الفرات ، يرد على سمعه ما تتناقله الأفواه في القرية والبادية عما ينال الشعراء في قصور الخلفاء والأغنياء من الجاه والثراء ، وبخاصة مواطنه أبو تمام فيطمح إلى ذلك ، وينظر في نفسه فيجد خاطره يسح بالشعر على البديهة دون علم بالعروض إلا ما اكتسب بالسليقة ، ولا بصر باللغة إلا ما أخذ عن الأعراب ، فيعلم أنه أوتي الملكة وأعطي الوسيلة فيقرض الشعر في كل شيء ، وينشده في كل مكان .

قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي : « رأيت البحتري هنا قبل أن يخرج إلى العراق يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في مجيئه وذهابه » ومعنى ذلك أن البحتري بدأ يتكسب بالشعر في قرينه على هذه الصورة المبتذلة لأنه قرر في نفسه أن يتصيد رزقه في بحور الشعر تارة من السمك ، وتارة من اللؤلؤ . وما كان لفتى منبج الطامح الطامح أن يقنع بالبصل والباذنجان دون الذهب والمرجان وهو الذي تمرد منذ صباه على الفقر ، وقضى العمر كله في جهاده . جاهد بسلاح الشعر وحده لا بالعلم ولا بالعمل . وسلاح الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يدركه الفلول في بعض الأوقات لإعراض خليفةٍ ، أو صدود وزيرٍ فلا يعمل ، فيضطرّ إلى التنقل من قصر إلى قصر ، أو التحول من بلد إلى بلد . فكانت حياته حياة الطائر الفَرِد ، قوام عيشه حنجرةٌ رخيمةٌ ، وجناحٌ خفاقٌ ، ومنقار لاقط . يُغني حيث يكون الروض ، ويقع حيث ينتثر الحَبّ . فإذا حلّ الشتاء وطمر الثلج روضه ، وَحطَمَ السيلُ عُشّه ، قطع أجواز الفضاء ، وأثباج الماء إلى جوٍّ آخر يتوفر فيه الحَبُّ والأمن والدفء !

شخصية البحتري ككل شخصية إنسانية لها قوامان : قوام ماديّ مفتاحه حبُّ المال ، وقوام معنويّ مفتاحه حب الجمال . وبهذين المفتاحين نستطيع أن نفتح ما استغلق من طباعه ، ونفسر ما استبهم من سلوكه .

كان حديث أحلامه ومنتجع أمانيه أن يقتنيَ ضيعة في منبج فمدح من مدح من السادة والقادة حتى بلغ في عهد المتوكل فوق ما تمنى . ثم صار همه بعد ذلك أن يمدح الولاة والعمال ليُعفوا ضياعه من الخراج . قال أحمد بن اسماعيل « كان البحتري يُلزِمُ إبراهيم بن المدبّر في كلّ سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، فأراد يوماً أن يشتريَ ضيعةً جديدة واستباح إبراهيم أن يؤدي عنه بعض ثمنها فلامه على طمعه وقال له : يكفيك ما تملك من الضياع فقد كثرت وعظمت . فأنشده قصيدة كان قد أعدّها يقول في مطلعها :

« سقاها تمادى لومها وَعَجاجُها »

حتى بلغ قوله فيها :

وما زالتِ العيسُ المراسيلُ تنبري ... فيُقضَى لدى آلِ المدبّر حاجُها

فأمر له بإتمام ماله !

كان البحتري في سبيل حبّ المال يبخل به ويحرص عليه . وهل للبخل معنىً غير حبّ المال ؟ فما رواه أبو الغوث ابنهُ ، وحكم بن يحيى ، وأبو مسلم محمد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن الأصفهاني من حديث شُحّه على نفسه ، وتقتيره على خادمه وأخيه ليس بِدْعًا من أخلاق الشعراء في ذلك العصر ، فقد كان البخل طبعًا مكتسبًا فيهم لم يخل منه إلا أفراد قلائل غيّبتهم نشوة الخمر عن الفكر في المستقبل فعاشوا في الحاضر يومًا بيوم، كمسلم بن الوليد وأبي نواس .

والشعراء البخلاء منطقيون مع الحياة ، يصنعون ما تصنع النَّحْل والنمل ، يدّخرون بعض ما يجدون ليوم لا يجدون ، لأنّ موارد أرزاقهم لم تكن مضمونة ولا مأمونة . كانوا يعيشون على صِلات الخلفاء وأولي النعمة ، ينادمونهم على الشراب ، ويفاكهونهم في السمر ، ويُمالقونهم بالمدح ، ويدورون من وراء رضاهم في السياسة والحكم ، فهم في خير ما دامت أسبابهم موصولة بالقصر ، فإذا انقطعت انقطع رجاؤهم في العيش . فكانوا بين مجدود كالجاحظ ، أو مكدود كالأخفش أما الجاحظ فقد سئل يومًا عن ثروته ، فتبسم ضاحكًا وأجاب : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها وخادم وحمار . وقد أهديت « كتاب الحيوان » إلى « محمد بن عبد الملك الزيات » فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت « كتاب البيان والتبيين » إلى « أحمد بن أبي دُوَاد » فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت « كتاب الزرع والنخل » إلى « ابراهيم بن العباس الصولي » فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد .

وأما علي بن سليمان الأخفش النحوي الأديب فقد ضاقت به الحال في أواخر أيامه فسأل « أبا عليّ بن مقلة » أن يكلم له الوزير « عليّ بن عيسى » عسى أن يجري عليه رزقًا في جملة الفقراء . فلما كلمه انتهره الوزير انتهارًا شديدًا وأجابه جوابًا غليظًا ، وكان ذلك في مجلس حافل ، فبلغ ذلك الأخفش فاغتمّ وانتهت به الحال إلى أن عاش على السُّلجم النيء ، ويقال إنه قبض على قلبه من اليأس فمات فجأةً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي سبيل المال كان البحتري يحتال ويتدنى ، وينقل شعره من مقام إلى مقام ، ومن ممدوح إلى ممدوح بعد تغيير تقتضيه الحال . قال يتحدث عن نفسه : « دخلت على المتوكل يوماً وفي يديه درتان لم أرَ أنقى منهما بياضاً ولا أكبر حجماً . فأدمت النظر إليهما ولم أصرف طرفي عنهما . ورآني المتوكل على هذه الحال فرمى إليَّ بالتي كانت في يمناه . فقبّلت الأرض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعاً في الأخرى فمَنَّ لي أن قلت :[1]

بسُرَّ مرَّا لنا إمامٌ ... تغرف من كفّيه البحار
خليفة يُرتجى ويُخشى ... كأنه جنةٌ ونار
الملك فيه وفي بنيه ... ما اختلف الليل والنهار
يداهُ في الجودِ ضرتان ... هذي على هذه تغار
وليس تأتي اليمين شيئاً ... إلاَّ أتت مثله اليسار

فرمى بالدرة التي كانت في يساره ، وقال : خذها يا عيّار . والعيّار : المحتال .

وقال أيضاً يتحدث عن نفسه : كنا في مجلس المتوكل ومعنا الفتح بن خاقان ، فاعترت المتوكل للفتح هزّة من السرور والرضا فقام يقبله ، ووثب الفتح فقام فقبل رجليه . والتفت الخليفة إليَّ وقال : « قل في الفتح وفيَّ شعراً ، فإني أحب أن يحيا معي، ولا أفقده فيذهب عيشي ، ولا يفقدني ، فيذلّ بعدي . فقلْ في هذا المعنى . » فقلتُ قصيدة منها :

---

(١) اللحنة : وتروى هذه القصة لعلي بن الجهم ذكر ذلك صاحب العقد في ١/٣٥٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٩ ؛ على أن هذه الابيات الخمسة موجودة في ديوان البحتري ص ٧٥٠ باختلاف يسير في بعض الالفاظ ، وهي كذلك موجودة في ديوان علي بن الجهم ص ١٣٦ (طبعة المجمع العلمي العربي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أرتني الأيام فَقْدَكَ يا فتـــحُ ولا عرّفتك ما عشت فقدي

أعظمُ الرزء أن تقدّم قبلي ومن الرزء أن تؤخر بعدي

حسداً أن تكون إلفاً لغيري إذ تفردت بالهوى قبلُ وحدي

فقال المتوكل : « أحسنتَ والله يا أبا عبادة ، وجئت بما في نفسي ، وأمر لي بألف دينار . » ، وكنت قد عملت هذه الأبيات في غلام كنت أكلف به ، فلما أمرني المتوكل بما أمر ، تخيرت فقلت الأبيات وأريته أني عملتها في وقتي وما غيرت فيها إلاّ لفظة واحدة ، فإنني كنت قلت :

ما أرتني الأيام فقدك ما عشـــتُ ، فجعلته : يا فتحُ ، وقد قتلا معاً وكنت حاضراً ، فريحت هذه الضربة (وأومأ إلى ضربةٍ في ظهره) .

وقد قال الصولي إنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه ممن قيلت فيهم إلى غيرهم بعد أن غيّر أسماءهم مع سعة ذرعه في قول الشعر ، وجدوى هذا أن تُجاز القصيدة مرتين من غير جهدٍ ولا كلفة .

ويدخل في هـذا الباب أمره مع غلامه نسيم ، فقد قال أحمد بن جعفر جحظة : « وكان نسيمٌ غلام البحتري رومياً ليس بحسن الوجه فجعله باباً من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه من بعض ذوي المروءة ممن ينفق عنده الأدب ، فإذا صار في ملكه مدحه وتشوّق الغلام وشبّب به وتحسّر عليه بمثل قوله :

دعا عبرتي تجري على الجَوْرِ والقصدِ أظنُّ نسيماً قارف الهمَّ من بعدي

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فيا عجبا للدهر . فَقْدٌ على فَقْدِ

فلا يسع من اشتراه إلاّ أن يهبه له . ولم تزل تلك حاله حتى مات نسيمٌ فكفى الناس أمره .

وفي سبيل المال تخلّق البحتريّ بأخلاق التجار فسالم الناس ودعا إلى السلم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعايش الأضداد ، وبرئ من التحيز ، ولابس العقائد والمذاهب والطوائف والعشائر ، وخلا من التعصب .

وُلِدَ في خلافة المأمون ، ثم تنفس به العمر حتى جاوز الثمانين ، فاستغرقت حياته حياة عشرة من الخلفاء تداولوا العرش العباسي ، وهو بعيد من الفتن والخطوب ، من تفارُس الخصوم ، وتنافس العناصر ، وتنازع الرؤساء ، وهو مضطر إلى مصانعة هؤلاء وهؤلاء ليسلم منهم جميعاً ، ويغنم منهم جميعاً ، فمدح العلويّ والعباسيّ والتركيّ والسنيّ والشيعيّ دون أن يجد غضاضة في نفسه ، ولا مشقة على ضميره ، لأنه يمثل المادح ولا يكونُهُ ، ويتخيل الممدوح ولا يعيّنه ، ويقول في المدح ما يقول ولا يعتقده ، ومن هنا لم يجد صعوبة ولا حرجاً في أن ينقل القصيدة من ممدوح إلى آخر ، ولعله لم يقل الصدق إلا في المتوكل لحبّه إياه ، وإخلاصه له ، وبلوغه الحظوة والثروة في أيامه ، حتى قال فيها :

أو ما ترى حسن الزمان وما بدا وأعاد في أيامه المتوكلُ
أشرقن حتى كاد يُقتبسُ الدجى ورطُبن حتى كاد يجري الجندل

ومن معاني مسايرته ومهاواته أنه لم يتبع سياسةً معينة ، ولم يعتقد نحلة خاصة ، وإنما كان يستنّ سنة الدولة ويذهب مذهب الحاكم . حدث إبراهيم بن عبد الله الكعبي قال : قلت للبحتريّ ويحك ! أتقول في قصيدتك التي رثيت بها أبا سعيد :

أأفاق صَبٌّ من هوىً فأفيقا :

يرمونَ خالقهم بأقبح فعلهم ويحرّفون كلامه المخلوقا

أصرت قدرياً معتزلياً ؟ فقال لي : كان هـذا دبني في أيام الواثق يعني (أيام كانوا يقولون بخلق القرآن) ثم نزعت عنه في أيام المتوكل (حين نزعوا عن هذا القول) فقلت له يا أبا عبادة : هذا دين سوء يدور مع الدول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد اتهمته العامة بالثنوية في أيام المعتمد لقوله :

ولم أرَ كالدنيا حليلة صاحب محبٍّ متى تحسن لعينيه تطلق
تراها عياناً وهي صنعة واحدٍ فتحسبها صُنعَيْ لطيفٍ وأخرقِ

(والثنوية يقولون بإلهين : إلهٍ للخير وإلهٍ للشرّ كما تعلمون) فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث وكان مقيماً معه : قم يا بنيّ نطفىء هذه النائرة بخرجة نلمّ بها شمشاط ثم نعود ، وهي الخرجة التي زار فيها إيوان كسرى وقال فيه قصيدته المعروفة . والحقّ أن البحتري كان لنشأته القروية البدوية بعيداً عن مذاهب الحضريين في الدين والفلسفة ، فلم يستمد شعره إلا من إلهام الخاطر ووحي الطبيعة . ومن قوله يردّ على المناطقة :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـــطق ما نوعُهُ وما سببُهْ

وفي سبيل المال ركب البحتري الأسفار وهو في طور الحداثة . يشهد على ذلك قوله :

وقائلةٍ والدمع يصبغ خدّها رويدك يا ابن الستّ عشرة كم تسري
فقلت أحقّ الناس بالعزم والسرى طلاب المعالي صاحب الستّ والعشر

وقوله :

تقاذفني بلادٌ عن بلادٍ كأني بينها خبرٌ شرود

فطوّف بالشام ، وجوّل في العراق ، وأوغل في الجزيرة ، وبين جنبيه الأمل الحافز ، وفي يديه الوصايا التي زوّده بها أستاذه أبو تمّام إلى الممدّحين من ذوي المروءات والرياسات في تلك البلاد . ولكنه كان دائب الحنين إلى الشام يستوقد شوقه إليها وافد النسيم من الغرب ، فيقول لنفسه :

حبذا العيش في دمشـــق إذا ليلها بَرَدْ
حيث يُستقبل الزما نُ ويُستحسن البلدْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو يقول للمعتز :

هل أطلعنّ على الشآم مبجّلا ... في ظلّ دولتك الجديد المونق
شهران إن يسّرت إذني فيهما ... كفلا بألفة شملي المتفرّق
قد زاد في شوقي الغمام وهاجني ... زجل الرواعد تحت ليل مطبق

أو يقول لأبي الصقر :

تراك تخلّني في غير أرضي ... وإنهاضي إلى بلدي يسيرُ
وأعتقتَ الزمانَ فسُرْ بعتقي ... إلى بلدي وأنت به جديرُ

* * *

ذلك بعض ما يفتحه علينا حبّ المال من شخصية البحتري ، أما ما يفتحه حبّ الجمال منها وهو مفتاحها الآخر فكلّ ما ينبثق عن روحه ونفسه وقلبه وذوقه من الأعمال والخلال . ولكن هذا المفتاح المعنوي لا يمكن أن يفضي بنا للباب الذي يفتحه إلى جانب مستقلّ من حياة الشاعر له مميزاته وخصائصه ، فإن العناصر المادية والمعنوية تتقارب وتتضارب وتتفاعل فيؤثر بعضها في بعض ، ويتأثر بعضها ببعض فلا يكون هناك حس محض ولا معنى خالص . فالأناقة التي اشتهر بها البحتري في تنضيد ألفاظه ، وتنسيق جمله ، وهي أثر من آثار حبّ الجمال ، تفارقه في اختيار هندامه وتأثيث بيته ، فقد كان كما رووا من أوسخ خلق الله ثوبًا وأداةً . ووساخة الثوب وقذارة الأداة أثر من آثار حبّ المال . وحبّ الجمال مقتضٍ ، وحبّ المال مانع ، وهذا أقوى من ذاك وأولى .

على أن صفة القذارة في الملبس والأثاث تعلل في أيام الفقر والبداوة والتجوال ولكنها لا تكاد تصدق أيام النعمة السابغة ، والحياة المترفة أيام المتوكل والفتح إلا إذا كانا يحتملان منه ما كان الوزير المهلبيّ وزير معزّ الدولة بن بويه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحتمل من أبي الفرج الاصبهاني ، فقد كان المهلبيّ مترفاً متنطعاً يأنف أن يأكل بالملعقة مرتين ، فكان له عن يمينه خادم يناوله في كل لقمة ملعقة ، وعن يساره خادم يأخذها . وكان صاحب الأغاني يجالسه ويؤاكله ، وكان قذر الهيئة رثّ الثوب لا يغسله ولا يبدّله ، فيحتمل الوزير ذلك منه لعلمه وحسن حديثه . وحدث يوماً أن المهلبي كان يأكل معه لوناً من ألوان الحلوى صنع له ونسب إليه وهو المهلبية ، فسعل أبو الفرج سعلة شديدة خرجت معها نخامة غليظة نوقعت في الصفحة فلم يزد الوزير على أن أمر برفع الصحفة ووضع أخرى واستأنف الأكل .

ومن أثر حبّ البحتريّ للجمال حبه للطبيعة ، فقد فُتن بها منذ الحداثة في الغيم والصحو والجبال والأمواه والحقول والرياض ، كما فتن بروائع الصنعة في القصور الفخمة والأبنية العجيبة كإيوان كسرى وبركة المتوكل وقصر المعتز بالله وقصائده في وصف هذه البنى أمثلة فريدة في الشعر العالميّ .

وهل تجدون أبدع وأرقّ من قوله في وصف ليلة صافية صاحية تلألأت نجومها وتطلّق دجاها :

كاد دُجى الليل من طلاقته يُقمِرُ والأُفْقُ ساقطٌ قمرُهْ

ومن أثر حبه للجمال كلفه بالجواري والغلمان ، فقد أحبّ وهو يافع عَلْوَةَ الحلبية ، وهي من قيان الشام ، وكان حبه إياها صبوة من صبوات المراهقة ، فانتهى بالجفاء منها والهجاء منه . ثم رحل إلى العراق فشارك شعراءه في حياة اللهو والمتاع وتتبع الجمال في مظهريه : المؤنث والمذكر ، ووصف الحبّ في حاليه : الخياليّ والواقع .

ولكنّ حبّ البحتريّ كان حبّ الشهوان العابث لا حبّ الولهان المتيم . أحبّ المرأة بجسمه لا بنفسه : وتغزّل فيها بلسانه لا بقلبه . فمذهبه في الغزل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كمذهبه في المدح ، يصور أحوال المحبوب كما يحلى أخلاق الممدوح من ذاكرته وخياله ، لا من وجدانه وواقعه . والفضل في إخفاء هذا الزيف عن القارىء إنما هو لبراعة ذهنه ، وعبقرية فنه . وواقعية خياله ، وقدرته على تصوير النفس الإنسانية تصويراً مجرداً يصدق جوهره على كل نفس . اسمعوا مثلاً قوله يتغزّل :

أصبا الأصائلِ إنّ بُرْقة مُنْشِدِ تشكو اختلافكِ بالهبوب السَّرْمَدِ
لا تتعبي عرصاتها إنّ الهوى مُلقًى على تلك الرسومِ المُهَّدِ
دِمَنٌ مواثل كالنجوم فإنْ عَفَتْ فبأيّ نجمٍ في الصبابة نهتدي

فهل تجدون فيما قرأتم أبدع من هذا التصوير ، وأرقّ من هذا الوصف ، وأصدق من هذا الشعور ؟ ولكنّ الذي يكشفه هو أن تسألوه : مالك ولبرقة ثهمد وليس لك فيها خولته ؟

إن زيف الغزل البحتري جاء من زيف حبه ، وبعيد أن يحبّ المرأة الحبّ الصادق من لا يحترم جنسها ولا يثق به . أليس هو القائل في النساء :

وعلى غيرهن أحزن يعقو ب وقد جاءه بنوه عِشاء
وشعيب من أجلهنّ رأى الوحـــدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء
واستزلّ الشيطان آدم في الجنّـ ـة لما أغرى بهِ حواء
وتلفّت إلى القبائل وانظر أمهاتٍ يُنسبنَ أم آباء
ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

ومن أثر حبه للجمال النفسيّ حبه للصداقة والصديق . فقد كانت لطبيعته المسالمة ، ونفسيته الشاعرة ، وحاجته إلى المعونة ، يطلب الصديق ويحرص عليه ويتعهده . وكثرة أشعاره في العتاب والإعتاب تدلّ على استبقاء الأصدقاء ومعاودتهم ، وقصائده في رثاء من ذهبوا منهم تنبئ عن الحزن عليهم والوفاء لهم ، ولقد صادق أبا تمام ودعبلاً والفتح بن خاقان وأبا العيناء والمبرّد ومحمد بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسام وابراهيم الصولي والفضل اليزيدي وغيرهم من نوابغ العصر فما ذمّوا عهده ، ولا أنكروا ودّه ، على الرغم مما يكون بين الأنداد من التنافس والتحاسد . ولكنه كان يقول أحياناً لمثل المبرد « أحبك ولكنّ الفن أحبّ إليّ منك ! »

حدث البحتري نفسه قال : خرجت من منزل أبي الصقر (أحد وزراء المعتمد) نصف النهار في تموز ، فقلت ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرد . وكان منزلي بعيداً بباب الشام ، فجئته ، فأدخلني إلى حويشة له وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيّبين ، وسقاني ماء بارداً ، وقال لي أحدثك إلى أن تنام . فجعل يحدّثني أحسن حديث ، فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان ، فسألته أن أنشدهما ، فقال ذلك إليك ، وهو يظنّ أني مدحته بهما ، فقلت :

ويوم كحرّ الشوق في صدر عاشق على أنه منه أحرّ وأومد
ظللت به عند المبرد قائلاً فما زلت في ألفاظه أتبرّدُ

فقال لي : قد كان يسعك إذا لم تحمد ألاّ تذمّ ، ومالك عندي جزاء إلاّ أن أخرجك . والنكتة التي اصطادها من الحرّ ومن معنى المبرد هي التي ورطته هذه الورطة .

كذلك كان من أثر حبه للجمال النفسيّ حبه للعباقرة من كل جنس ، يشهد بذلك قوله في سينيته التي وصف بها إيوان كسرى :

وأراني من بعد أكلف بالأشـــراف طراً من كل أسٍ وجنس

وكذلك اعترافه بالجميل لأهله . وذلك واضح في قوله من هذه القصيدة نفسها :

عمرت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموعٍ موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من زكائها خير غرسِ
أيّدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنوّر حُمسِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأمره مع أبي تمام شاهد آخر على أصالة هذا الخلق فيه . فقد رووا أن بعض الناس سمع شعره فقال : « والله ما ينفعني هذا القول ولا يضرّ أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلاّ به ، ولوددت أن الأمر كما قلت ، ولكني والله تابعٌ له ، آخذٌ منه ، لائذٌ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه . » والاعتراف بالجميل والحقّ دليل الاعتداد بالنفس والثقة والمقدرة .

* * *

أما ما نُسب إليه مما يُنافي حب الجمال ، ويُجافي سلامة الذوق ففيه نظر وله تأويل . قالوا : إنه كان بغيض الإنشاد ، يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقرى ، ويهزّ رأسه مرةً ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين قائلاً : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وهذه الحادثة إن صحت لم تقع إلا مرة واحدة كانت في مجلس المتوكل ، ولم يروها إلاّ رجل واحد كان « أبا العنبس الصيمري » ، وهو رجل ماجن مزّاح كان ينادم رُضّاع الكأس فيخترع لهم الأضاحيك ، ويروي الأفاكيه . قال يروي هذا الخبر لجحظة : « كنت عند المتوكل والبحتريّ ينشده :

عن أي ثغرٍ تبتسمْ وبأيّ طرفٍ تحتكمْ

فكان يتشادق ويتزاور إلى آخر ما وصف . فضجر المتوكل من ذلك وقال لي : بحياتي اهجه على هذا الرويّ الذي أنشدنيه فقلت :

أدخلتَ رأسك في الحِرَمْ وعلمت أنك تنهزمْ

الى آخر ما أنشد من ركة وقحة . فالحادثة اذا قبلنا في إثباتها خبر الواحد وهو مجروح بمجونه ، مهزلة في مجلس شراب زالت فيه الكلفة ، وذابت التفرقة وانطلق المكبوت من الوعي الباطن . فما كان من البحتري كان صورة كأس ، ونشوة طرب ، وما كان من الصيمري كان فرصة تهريج ، ونهزة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دعابه ، وما كان من المتوكل كان عبثاً بالشاعر ولهواً بالنديم . على أن المرة الواحدة وإن وقعت في الصحو لا تكسب خلقاً ، ولا تثبت نقيصة .

* * *

هذه أيها السادة صورة تقريبية لشخصية الشاعر الأكبر ، رسمتها في إطار الزمن المقدّر لعرضها عليكم . فإذا أضفت إليها بعض الصفات الخَلْقيّة التي تجمعت كل صفة منها من طريق ، كقول أبي الفرج : « إنّ لحيته كانت سمراء طويلة » ، وقول ابن الرومي : « إنّ وجهه كان مسنوناً ذنوباً » ، وقول أبي العلاء : إن قدميه كانتا كقدمي الديك » ، وقول الصولي : « إن بدنه كان قصداً بين الطول والقصر ، وبين السمن والهزال ، وأنه كان معافىً طول عمره فلم يشك علةً في جسده ، ولا عقدة في نفسه » استطعنا أن نتبيّن من خلالها ، على اختلاطها واجمالها معارف هذا الفنان العظيم الذي حمل قيثارة الشعر بعد أبي تمام فزاد في أوتارها وَتَرَ الوصف الدقيق المُصَوِّر ، وفي ألحانها لحْنَ الغَزَل الرقيق المُعَبِّر ، فكان خليقاً بقول صاحب « المثل السائر » فيه : « أما البحتري فأراد أن يشعر فغنّى . »

والفضل في فضله إنما كان لأمه الشام : مثابة الأدب الخالص ، والعروبة النقية ، والاسلام الصحيح ، فإنها بفضل ما حباها به الله من زكاوة التربة ، وأصالة الفطرة ، وفتون الطبيعة ، قدّمت إلى الشعر في حبيبٍ والوليد وأحمد عُزّاهُ وَلاتَهُ وَمَناتَهُ كما قال « ضياء الدين بن الأثير » وأعادت إلى العرب الخُلّص سَبْقَ الشعر ممن غلبهم عليه من الشعراء الموالي بإنجابها العباقرة الخمسة : أبا تمام ، وأبا عبادة ، وأبا الطيّب ، وأبا فراس ، وأبا العلاء . فالاحتفال بالبحتري احتفال بها ، وتكريم البحتري تكريمٌ لها .

والله سبحانه وتعالى يُخلِّدُ في رحمته وجنته روح الابن ، ويكلأُ بعينه وعونه حياة الأمّ .

احمد حسن الزيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net